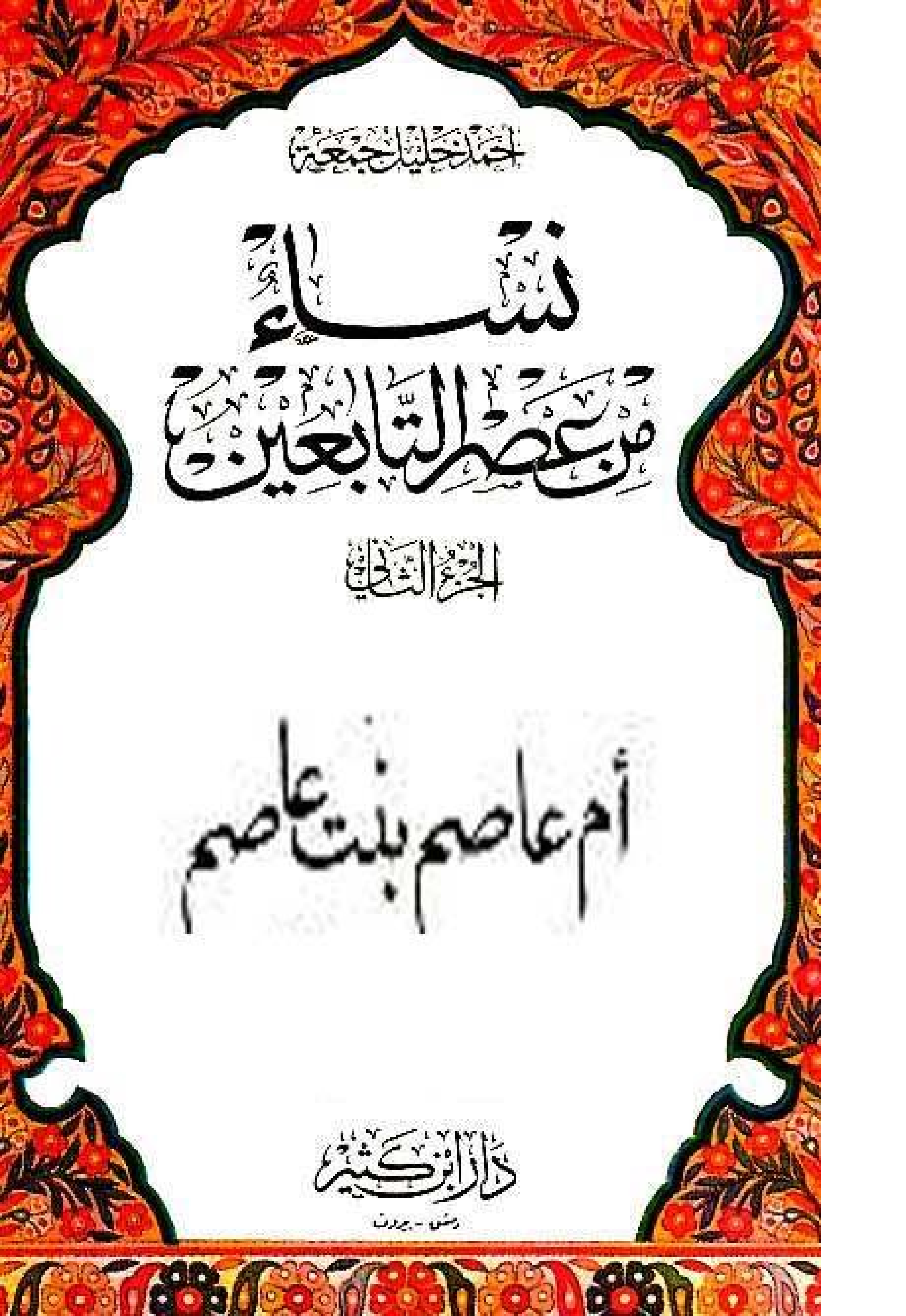

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
أم عاصم بنت عاصم
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٦)

أم عاصم بنت عاصم

* تقيّة ، نقيّة ، محبّة للخير والعلم ، محسنة ، كريمة ، أم عمر بن عبد العزيز .

أمُّ عَاصِم بنْتُ عَاصِم

إنَّ ربَّ عُمَر يَرانَا :

* تعالوا نشهد هذه الليلة الشّاتية الخالدة مِنْ ليالي المدينة المنوّرة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ .

* ففي ليلة ساكنة ، قد سجى ليلها ، أوى النّاس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدّفء من ذلك البرد الزّاحف ، إلا أنَّ رجلاً واحداً أفزعته مسؤولياته ، نَضَا عنه غطاءه وخرج يجوب طرقات المدينة التي خلَتْ من النّاس ، ولم يبق بها سوى قطع الظّلام الدّامس ، ولفحات الرّيح الباردة .

* خرج ذاك الرّجل وحده يعسُّ في الليل ، فلعلّ هناك ابن سبيل لا يجد مأوى ، أو مريضاً أسهره الألم ، أو جائعاً لا يجد ما يسدّ به رمقه ، ولعلّ هناك شأناً من شؤون رعيته قد غاب عنه ، وهو مسؤول عن شاةٍ قد تتعثر بعيداً في شاطىء الفرات ، والله سبحانه سائله عن ذلك ومحاسبه عليه .

* كان ذاك الرجل أمير المؤمنين . نعم ، فلِمَ الاستغراب ؟! .

إنّه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ .

* وطال تطواف عمر ـ رضي الله عنه ـ في ذاك الليل البهيم ، وكاد

التعب يستولي على جسمه ، فاستند إلى جدار دارٍ صغيرة في طرف المدينة ، ووقف يستريح بعض الشيء . ليتابع خطوه بعد قليل نحو المسجد ، فقد أوشكتْ خيوطُ الفجر بالظّهور ، وأخذت جيوش الظّلام تعدّ العدة لتترك مكانها لضياء النّهار .

* في تلك اللحظاتِ ، ترامى إلى سمعه صوت امرأتين داخل الدّار الصّغيرة ، كان ذلك حواراً بين أم وابنتها ، وكانتِ البنتُ تجادل أمّها وترفض أن تمزجَ اللبن ـ الحليب ـ بالماء ... كانت الأم تقول : امزجي اللبن بالماء .

فقالت الفتاة : إنَّ أمير المؤمنين عمر منع عن مَذْق اللبن ، ألم تسمعي مناديه بالأمس ينهى عن ذلك ؟ .

فقالت لها الأمُّ : إن عمر لا يرانا ، ولا يدري بنا الآن في هذه السّاعة المتأخرة من هذا الليل ! .

فردّتِ البنتُ على الفور : يا أمي ، إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا ، والله ما كنتُ لأفعله وقد نهى عنه .

* كانت عبارةُ هذه الفتاة برداً وسلاماً على قلب سيدنا عمر الذي تملكه العجب من جوابها لأمها الذي يجمع الصّدق والإيمان ، والخوف من الله عزَّ وجلَّ ، ومراقبة النفس سراً وعلانية .

* وأسرع لتوه إلى المسجد النبوي الشّريف ، وصلى بأصحابه ، ثم عاد إلى بيته ، وكلمات الفتاة الصادقة تعاود سمعه : إن كان عمر لا يرانا فإن ربَّ عمر يرانا ...

* ودعا عمر ابنه عاصماً ـ وكان مزمعاً على الزواج ـ وأرشده إلى بيت الفتاة ، وحدّثه بما سمع ، وقال قولته المشهورة : اذهب يا بني فتزوّجها ، فما أراها إلا مباركة ، ولعلّها تلدُ رجلاً يسودُ العرب .

* وتزوّج عاصم تلك الفتاة الفقيرة الورعة ، واسمها أُمّ عمارة بنت سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي ـ وقيل من بني هلال ـ ، فأنجبت له ابنةً أسموها ليلى ، وكنوها أم عاصم وهي ضيفتنا في هذه الصّفحات ، كما أنجبت لعاصم ابنة أخرى اسمها حفصة[1] .

* * *

أُمُّ عاصِم ونَشْأةٌ عُمَرِيَّةٌ :

* نشأت أمُّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب القرشيّة العدويّة نشأة تقيّة نقيّةً ، ودرجت في شبابها على حبِّ الخير ، وحبّ العلم ، فتلقّتْ عن أبيها عاصم وحدّثتْ عنه .

* وكان أبوها ممن ولد في حياة الرّسول ﷺ ـ وكان خيّراً فاضلاً فصيحاً ، وقد ورثتْ أمُّ عاصم هذه الفضائل والخصال الحسنة عنه ، وتوفي عاصم سنة (٧٣ هـ) ـ رضي الله عنه ـ .

* وكانت أمُّ عاصم ـ رحمها الله ـ منْ أكملِ أهل دهْرِها أخلاقاً ، وأكرمهن خِلالاً ، فأمُّهـا ـ أم عمارة الثّقفية ـ تلك المرأة التي اتخذها

(١) عن نسب قريش (ص ٣٦١) ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٢٢ و ٢٣) ، وتاريخ دمشق (ص ٥٣٧) ، ووفيات الأعيان (٦/٣٠٢) ، ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٨٤) بتصرف .

عمر زوجاً لابنه عاصم ، وليس لها ما تعتزُّ به من نسب وحسب إلا ما جرى على لسانها من قولها الصّدق في نصحها لأمّها ، وليس لها من نسب أيضاً إلا دينها وإسلامها ... :

أبي الإســـلام ، لا أبَ لي ســـواه
إذا افتخـــروا بقـــيس أو تمـــيم

* واقتبست أم عاصم[1] الخلال الحميدة والخصال الكريمة من أبويها ومن جدّها عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فكانت من صفة الصّفوة ومن خيار النساء التّابعيات ممن يؤخذ عنهن العلم ويؤثر عنهن الصّدق .

* وقد روى عن أمّ عاصم ابنها عمر ، فمن مروياتها ما ورد عنها عن أبيها عاصم عن جدها عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْم الإدام الخل[2] » .

* * *

المَالُ الطّيّبُ والزّوَاجُ المُوَفّقُ :

* ذكر النبي ﷺ أنّ النّاس معادنٌ ، يتفاوتون في الخير والشّر ، والشّرف والوضاعة فقال : « النّاس معادنٌ في الخيرِ والشّرِ ، فخيارُهُم في

---

(١) قال النّووي رحمه الله : أمُّ عاصم بنت عاصم واسمها ليلى سكنت دمشق (تهذيب الأسماء واللغات : ٢/١٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٢) في الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به ، وانظر جامع الأصول (٧/٤٦٩) .

الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[1] » .

* ولهذا حثَّ النَّبيُّ الكريم ﷺ الرَّاغب في الزواج أن يكون اختياره للمرأة ـ الزَّوجة ـ على أساس الخلق الكريم القويم ، والصَّلاح والأصالة ، وأن يبحثَ عن الفتاة ذات التَّربية الحسنةِ ، فقال ﷺ :

« تخيروا لنطفكم ، وأنكحوا الأكْفَاء[2] » .

* من هذا المنطلق السَّليمِ ندرك توجيه رسول الله ﷺ أنظار الرَّاغبين في الزَّواج كي يختاروا زوجاتهم من بيئة صالحة ، قد انحدرن من أصول عريقة ، ذات عروق سليمة ، ليكتسب أولادهم العادات الأصيلة ، والأخلاق الكريمة فالولدُ ينزع إلى أصل أمِّه وطباعها . وهذا ما كان لعبد العزيز بن مروان الذي كان ينظر نظرةً فاحصةً فيمن حوله من الفتيات ، ومن ذَوَاتِ الصَّلاح والفلاح لتكون قرينةً له ، فكان ذلك .

* وكان عبد العزيز بن مروان ـ هذا ـ أميراً من أمراء بني مروان ، وكان ولي العهد بعد أخيه عبدِ الملك بن مروان ، وعندما أرادَ أنْ يتزوَّجَ طلبَ من خازنِ ماله أنْ يتخيَّرَ من أطيب ماله وصالحه ليكون مهراً لزوجه فقال له :

اجمعْ لي أربعمئة دينار من طيبِ مالي ، فإنّي أريدُ أنْ أتزوجَ إلى أهلِ

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده (٣٢٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) في النكاح ، باب الأكْفَاء . « تخيروا لنطفكم » : أي لا تضعوا نطفكم إلا في أصل طاهر .

بيتٍ لهم صلاح[1] .

* ولم يشترط عبد العزيز ما يشترطه الأمراء الأثرياء من الجمال أو المنزلة ، وإنّما طلب العِرْقَ الطّيِّب في المنبت الطّيب ، فأصهر إلى آل الخطابِ ، واختار _ ليلى _ أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر ، ومن يصهر إلى آل الخطاب ، فإنه لا يتقرب منهم لمكانتهم ، فآلُ الخطاب لم يسعَوْا لمجد مؤثل عريض ، بل اتجهتِ الأسرةُ العمريةُ إلى العلمِ والزُّهد ، ومن يصهر إليهم فإنّما يرجو لأولاده حياةً كحياة آل الخطاب ، فالولدُ ينزع نحو أخواله .

* ولئن فاتنا _ نحن _ النّسب إلى آل الخطاب ، فلا يفوتنا الانتساب لهم في الحديث عنهم ، فقد كانت أمُّ عاصم _ رحمها الله _ محسنة كريمة صالحة ، ورثتِ التّقوى عن أمّها وأبيها ، كما كانت نقيةَ النّفس ، طاهرة القلب ، مؤمنة بالله على أساس صحيح ، لذلك قيّض الله لها الجَمْع الطّيّب والمال الحلال ليكون مَهْراً لها ، وكان من ثمرة زواجها بعبد العزيز بن مروان أنْ ولدت له عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، والتقي الورع .

* * *

أمُّ عاصِمٍ وتَرْبِيَةُ عُمَر :

* في المدينـةِ المنوّرة كان مولد عمر بن عبد العزيز ، ومنْ ينابيع علومها نهل ما يشاء له أن ينهل ، وأسّسته أمّه على التّقوى من أول يوم ميّز

(1) الطبقات (٥/٣٣١) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١٩) .

فيه بين الخير والشر ، وزرعت في نفسه الحكمة التي صاحبته إلى أنْ لقيَ الله عزّ وجلّ زاهداً تقياً نقياً ، كما حببتْ إليه العلمَ وزيّنته في قَلْبه فنشأ نشأةَ العلماء في المدينة ـ والمدينة يوم إذ منارة للعلم والصّلاح تزخر بالعلماء والفقهاء والعبّاد والصّالحين ـ وعكف بإشراف أمّه على حفظ كتاب الله عزّ وجلّ حتى حفظه في زمن قصيرٍ وجيز ، ولمّا يشتدّ عوده بَعْد ، أو يبلغ مبلغ الرّجال .

* ولقد كان لتأثير القرآن الكريم في نفسه الصّغيرة ، أنِ امتلأ قلبه النّقي بخشية اللهِ ، وتمسّك بأسباب التُّقى فارتقى ، فكانت عيناه تفيضان بالدمع من خشية الله عزّ وجلّ فيبكي وينتحبُ .

* وكانت أمُّ عاصم ـ رحمها الله ـ تعجب من ولدها الصّغير الورع البكّاء ، فيحرك في قلبها كوامن الخشية فتبكي هي أيضاً ، ذكر ابن عساكر ـ رحمه الله ـ أن عمر بن عبد العزيز بكى ـ وهو غلام صغير قد جَمَع القرآن ـ فأرسلت إليه أمّه ما يبكيكَ ؟ ! .

قال : لا شيء يا أماه ، ذكْرُ الموت ، ذِكْر الموت ! .

فبكت أمّه من ذلك وأشفقت عليه(1) .

* ولقد جَنَتْ أم عاصم غراس التُّقى بابنها في وقت مبكر ، وآتت أكلها في شخص ابنها عمر بن عبد العزيز ؛ الذي أثار إعجاب أستاذه وشيخه صالح بن كيسان(2) الذي قال عن طفولة عمر : ما خبرت

---

(1) تاريخ دمشق (ص ٥٣٩) بتصرف يسير جداً .

(2) صالح بن كيسان المدني التابعيّ ، أبو محمد : مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز ، ثقةٌ ، =

أحداً ، الله أعظم في صدره مِنْ هذا الغُلام . . .

* كلُّ هذه الفضائل كانت ثمرة جهد الورعة التَّقية أم عاصم ، نعم ، فقد كان ذلك في نجابة ابنها في طفولته الغضة النَّضيرة ، ولله در القائل :

نِعَـــمُ الإلهِ عــلى العبـــادِ كثــيرةٌ
وأتمهـــنَّ نجــــابـــةُ الأولاد

* وماذا بعد عن أمّ عاصم أم الغلام السّعيد النّجيب ؟ فقد كانت تحوطه برعايتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، لكنّه أفلتَ منها مرّةً ، ودخل إلى إصطبلِ الخيل ـ وهي لا تشعر ـ فرمحته ـ ضربته ـ دابّةٌ ، فشجته في جبينه ، وبصُرتْ به أمّ عاصم عن جنب فأسرعتْ وضمّته إلى صدرِها ، وجعلتْ تمسح الدّمَ عن وجهه ، ودخل أبوه عليها على تلك الحال ، فأقبلت أمُّ عاصم عليه وجعلتْ تعذله وتلومه وتقول :

ضيّعتَ ابني ولم تضمَّ إليه خادماً ، ولا حاضناً يحفظه منْ مثلِ هذا . وصمت هنيهات إذْ طافتْ بخاطره ذكرى ألقتْ على ثغرهِ ابتسامة رضىً ، ورسمت على وجهه علائمَ سرور وقال لها :

اسكتي يا أم عاصم ، فطوباك إنْ كان ـ ابنك ـ أشجّ بني أمية[1] .

= ثبتٌ ، فقيهٌ ، كان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه ، وهو أحد الثّقات في رواية الحديث . قال ابن ناصر الدّين : عاش أكثر من مئة سنة . توفي سنة (١٤٠ هـ) رحمه الله تعالى .

(تقريب التهذيب : ٣٦٢/١) ، و (الأعلام : ١٩٥/٣) .

(١) عن تاريخ الطبري (٦٨/٤) ، وتاريخ دمشق (ص ٥٣٤) بتصرف يسير .

وفي رواية : إنْ تكنْ أشجّ بني أمية إنك إذن لسعيد .

* والآن ، فما الذكرى التي أثارتها هذه الحادثة في نفس عبد العزيز بن مروان ؟ إنّها رؤيا سيّدنا عمر بن الخطاب العبقريّ الملهم الذي رأى في نومه ذات ليلة رؤيا نهض من فراشه على إثرها يعجب ويقول :

مَنْ هذا الأشجّ من بني أمية ، ومن ولد عمر ، يُسمى عمر ، يسيرُ بسيرة عمر ، ويملأ الأرض عدلاً ؟!! .

* وتوفي عمر ــ رضي الله عنه ــ ، وظلّ حلمه هذا يدوّي بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة في وجوه أبنائهم ، إلى أنْ كانت هذه الحادثة التي توقّعها عبدُ العزيز بن مروان في ابنه عمر ، فلم تخطىء فراسته بذلك .

* فقد كان عمرُ بن عبد العزيز هو ذلك الأشجُ الذي حوّلَ شهقات البائسين وحرقتهم إلى بَسمات متهلّلة ، تمرح تحت ظلال عدلِه وبرّه ــ رحمه الله ــ ، وكان مردُّ تلك التّربية الفريدة إلى أمّه أمّ عاصم ــ رحمها الله تعالى ــ .

* * *

كَرَمُها وَبرّها :

* غادرتْ أمُّ عاصم المدينة المنوّرة لاحقةً بزوجها عبد العزيز بن مروان في مصر ــ إذ كان والياً عليها ــ وأقامتْ هناك . . .

* هذا وعُرفتْ أمُّ عاصم بالجود والكرم ، والرّحمة والبرّ بالضّعفاء ،

وقد كان بمصرَ إنسانٌ به خَبَلٌ وسذاجَةٌ ، فكانت أمُّ عاصم قد مرَّت به ، فتعرّضَ لها ، فأعطته وأحسنتْ إليه ، وكانت تحسنُ إليه دائماً كلّما مرت به . وتوفيتْ أمُّ عاصم عند عبد العزيز بن مروان[1] ، فأصهر مرة أخرى آل الخطاب ، وتزوج حفصة بنت عاصم أخت أمّ عاصم ، وحُملت إليه وهو بمصرَ .

* وخرجتْ حفصةُ بنتُ عاصم ذاتَ يوم فمرّتْ بذاك الرّجل السّاذج البسيط ، فلمْ ترفعْ إليه رأساً فقال : ليستْ حفصة من رجالِ أمّ عاصم . يريدُ ليست حفصة من زمرة أمّ عاصم في كرمها وبرّها وجودها ، فصارت كلمته مثلاً[2] .

* وقبل الوداع مع نفحة السّيرة العمرية وسيرة أمّ عاصم سليلة عمر بن الخطاب من غلامٍ بربري : لما ردَّ عمر بن عبد العزيز مظالم أهل بيته ، وأخذهم بالحقّ ، قال مولى لآل مروان بربري يخاطبهم : وأنتم أيضاً فتزوّجوا بنات عمر بن الخطاب .

* رحم الله أمّ عاصم بنت عاصم ، ونضّر قبرها ، وعصمنا من الزّلل ، إنّه سميع مجيب .

* * *

(١) لا نمتلكُ سنداً وثيقاً يحدد سنة وفاة أمّ عاصم ، وأغلب الظّن أنها توفيت في حدود سنة ثمانين ، لأنَّ وفاة زوجها كانت سنة (٨٦ هـ) ، والله أعلم .

(٢) عن نسب قريش (ص ٣٦١) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ١٨٨) بتصرف يسير جداً .